

# الأدبُ في تراث العلوم الإسلامية وفي تراثنا التاريخي بوجه خاص

للدكتور

محمد فتحي عثمان

أستاذ التاريخ بكلية العلوم الاجتماعية

## التعبير الأدبي في مجالات التعبير كلها، «الأدب الوظيفي» :

في المجتمع الإسلامي، يمكن القول بأن الأدب في رسالته ومهمته يتجاوز ماشاع وذاع من أن الأدب ينبغي أن يكون للحياة لا للأدب في ذاته: فإن القول بأن الأدب هو للحياة قد لا يقي الأدب الصنعة والاحتراف، وقد لا يقيه انحصار التعبير الأدبي والتذوق الجمالي في مفاهيم محدودة عن الفقر والترف والتناقض والصراع، وتكرار هذه المعاني بكرة وعشيا حتى يسأمها ويمجها الأدباء المبدعون والنقاد والقارئون جميعا.

ان الأدب في المجتمع الإسلامي يتجاوز مقولة (الأدب للحياة) إلى ما يمكن أن يعبر عنه «بالأدب في الحياة» أو «الأدب الوظيفي» Functional Literature إذ يستخدم الأدب في مختلف مجالات الحياة ويوظف ويستثمر فيها، ويكون هو والحياة كلها تحت توجيه القيم الإسلامية فلا يهيم الأدب والأدباء في كل واد يطلبون الجمال وحده بعيدا عن النفع العملي

( أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ

مَالًا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ )

(الشعراء / ٢٢٥ - ٢٢٦).

ومثل ذلك يمكن أن يقال في (الفن الوظيفي) بحيث يكون الفن موظفا مستثمرا في شتى المجالات العملية لا لمجرد استعراض الطاقات المادية والإبداعية

( أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ

لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ )

(«الشعراء / ١٢٨ - ١٢٩»)

بل لا ينفك (الجمال) ملتحها ومقترنا (بالنفع)، فلا يكون ثمة جمال أو تجمل في منأى عن

المجالات العملية النافعة، كما لا يكون ثمة اهتمام بقصد النفع وحده في التعبير بعيدا عن الجمال؛ فإن الجمال الفارغ من النفع ليس هو الجمال الأصيل الكامل، والنفع العارى عن الجمال لا يتم نفعه ولا يتعمق تأثيره. ولقد علم القرآن المؤمنين اقتران المنفعة بالجمال في صنع الله الذى أتقن كل شئ وعلمهم وجوب اقتران الانتفاع بالتذوق الجمالى عند كامل الإدراك مرهف الحس، فقال عز من قائل

( وَأَلْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا  
تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ  
تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا  
بَلِغِيهِ إِلَّا بِسِقِّ الْأُنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾  
وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا  
تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ )

«النحل / ٥ - ٨»

( وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ  
بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِ  
هُم قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ )

«النمل / ٦٠»

( أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا  
وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦١﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا

فِيهَا رَوَّسِي وَأُنْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ  
وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾

(ق ٥ - ٨)

إِنَّا زَيْنًا أَلَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيْنَةَ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا  
مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾

(الصفات ٦ - ٧)

وهكذا يوجه القرآن المؤمنين - وهو قمة التربية والتوجيه - إلى أن يتجاوزوا حدود الانتفاع الحيوى المادى فلا ينحسروا فى الجانب البيولوجى الذى يشترك فيه الإنسان مع من دونه من الكائنات، بل عليهم أن يعيشوا فى مستوى الإنسان مرهف الحس عميق الإدراك، فينتفعوا بما سخر الله لهم فى هذا الكون العظيم، ويتذوقوا جمال خلق الله الذى سخره لانتفاعهم فى الوقت نفسه، وبهذا يتم الانتفاع والاستمتاع فهم يصلون بممارسة الانتفاع العملى والتذوق الجمالى الى نتيجتها المنطقية الرفيعة التى تهدى الى الخالق البارى المصور الحكيم القدير.

﴿١٧﴾ وَأَمِنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا  
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾

«النحل / ١٧ - ١٨»

﴿١٧﴾ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ  
وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٧﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ  
تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ

الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ

«الزخرف / ١٢ - ١٤»

رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

وبهذا التوازن والاتزان وجه القرآن الرجل المؤمن أن يأخذ زينته وهو يغشى المسجد  
ليعبد الله

( \* ) يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا  
وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾  
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ۖ وَالطَّيِّبَاتِ  
مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

«الأعراف / ٣١ - ٣٣».

يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

وهكذا فإن الجمال هو الجمال في كل مجال: في الصورة والفكر والسلوك، في المظهر  
والمخبر، وهو ما أكدته جمهرة علماء الجمال Aesthetics أيًا كانت نزعاتهم وأجيالهم ومواطنهم.  
والمؤمن الذي يغشى المساجد يتلقى تربية قرآنية متكاملة، فهو يجمع بين جمال المخبر  
والمظهر، ولا يهمل جمال الظاهر اكتفاءً بجمال الباطن، كما لا يغش الناس بجمال الظاهر  
دون الباطن، وكذلك تقتزن طهارة البدن والثوب والمكان بطهارة الجنان، وهذا هو  
التكامل والاكتمال في تربية الإسلام.

والذي يؤثر عن هذه الأمة وتحتوى عليه مكتبتها الغنية الزاخرة من أدب طبيعي  
وكلام مرسل وتعبير بليغ، يحرك النفوس ويثير الإعجاب ويوسع آفاق الفكر ويبعث في  
النفس الثقة. ولا عيب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب والانشاء ولم

يتخذوه حرفة ومكسبا، ولم يشتهروا بالصناعة الأدبية ولم يكن لهذا النتاج الأدبي الجميل الرائع عون أدبي، ولم يكن في سياق أدبي، وإنما جاء في بحث ديني أو كتاب علمي أو موضوع فلسفي أو اجتماعي، فبقى مغمورا مطمورا ولم يشأ الأدب الصناعي بكبريائه أن يفسح له في مجلسه، ولم يتنبه له مؤرخو الأدب - بضيق تفكيرهم وقصور نظرهم - فبنوهوا به ويعطوه مكانه اللائق به. إن هذا الأدب الطبيعي الجميل القوي كثير وقديم في المكتبة العربية، بل هو أكبر سنا وأسبق زمنا من الأدب الصناعي؛ فقد دُون هذا الأدب في كتب الحديث والسيرة قبل أن يدون الأدب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات، ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء والباحثين بما حظى به الأدب الصناعي مع أنه هو الأدب الذي تجلت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها وبلاغة أهل اللغة ولباقتهم، وهو مدرسة الأدب الأصلية الأولى.... وضعت ندوة العلماء منذ إنشائها هذا الهدف نصب عينها وجعلته موضع اهتمامها الخاص، ويدل على ذلك ما أنتجه رجال ندوة العلماء وخريجوها في الأدب ونقده وتاريخه وبيان نصوصه، حتى أصبحت لهم مدرسة أدبية خاصة ظهرت آثارها في لغة (أردو) لغة المسلمين في شبه القارة الهندية.

هكذا تعبر ندوة العلماء في شبه القارة الهندية، وفي مقدمتها الشيخ الجليل أبو الحسن الندوى عن حقيقة الأدب في تراث المسلمين خلال دعوتها لعقد ندوة عن الأدب الإسلامى في لكنو في رجب ١٤٠١ هـ. وينبغى على كل مسلم أن يشد على هذه الأيدي ويتضافر مع تلك الجهود المباركة لنشر الجمال خلال التعبير في مجال التعبير، ونشر النفع خلال كل تعبير جميل، فإن الانفصام النكد بين الأدب وسائر المجالات الطبيعية للتعبير قد أدى إلى محنة «تسلط أصحاب الصناعة والتكلف على الأدب وبخاصة الأدب العربى... فيأتى على الناس زمان لا يفهم من كلمة (الأدب) إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع وأدب تقليدى لا قوة فيه ولا روح، ولا طرافة ولا متعة...» - كما تقول بحق رسالة ندوة العلماء لعقد ندوة الأدب الإسلامى. كما أنه أدى إلى محنة أخرى لا تقل سوءاً هي تحلى الذين يكتبون في سائر المجالات الطبيعية للتفكير والكتابة عن مراعاة الجمال فيما يكتبون ماداموا ليسوا من المتأدبين المحترفين أصحاب الصناعة. وهكذا افتقدنا النفع في نتاج كثير من المتأدبين المحترفين أصحاب الصناعة، كما افتقدنا

الجمال فيما يكتبه المفكرون والفقهاء والمؤرخون والجغرافيون والمربون والاجتماعيون والاقتصاديون وغيرهم ممن يعبرون عن آرائهم بالكلمة.

ولقد قرر تراثنا وكتابنا الأقدمون حاجة الكاتب إلى معارف شتى تغذى أدبه حتى لا يكون الأدب والكتابة منه بوجه خاص صناعة لفظ وشقشقة كلام، وإنما يكون أداة تعبير عن حقائق نافعة مفيدة في مختلف مجالات المعرفة. يقول عبد الحميد الكاتب (المتوفى في ١٣٢ هـ/٧٥٠م) في رسالته المشهورة إلى الكتاب «تتافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها....» وتتابع على ذلك التصنيفات التي تنصح الكتاب وتوجههم، من أمثال كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة (المتوفى في ٢٧٦ هـ/٨٨٩م)، وكتاب (أدب الكتاب) للصولي (المتوفى في ٣٣٥ هـ/٩٤٦م)، إلى أن ظهرت موسوعة النويري المتوفى في ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م (نهاية الأرب في فنون الأدب) وما أضخمها وأنفعها موسوعة أدبية علمية، وأعقبها أختها موسوعة القلقشندي المتوفى في ٨٢١ هـ/١٤١٨، (صبح الأعشى في صناعة الانشا) وهي الأخرى تحتوى ثروة واسعة جلييلة من المعرفة على الرغم مما ذكره القلقشندي من أن غاية موسوعته هي إعداد كتاب ديوان الانشاء الذين يدبجون لرؤساء الدول الرسائل السياسية والإدارية والحربية فضلا عن رسائل المناسبات الخاصة من تهنئة وتعزية وإهداء وشكر واعتذار وعتاب وما إلى ذلك. ويورد القلقشندي الذخيرة الواجبة من المعارف لهؤلاء الكتاب في وظائفهم الديوانية المحدودة، فإذا هي ثقافة واسعة مستوعبة تبدأ بالكتاب والسنة وتشتمل على السير وأحكام الفقه، والأحكام السلطانية وفروعها، وأشعار العرب والمولد ونشرهم وخطبهم وأمثالهم وأيام العرب وحروبهم، والتواريخ وأخبار الدول الماضية، وسير الملوك وأحوال الممالك فضلا عما ينبغي للكاتب من سعة الباع في علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة ومن حسن الخط والعناية به. وعلاوة على هذا كله فإن من واجب الكاتب أن يكون كريم الأخلاق أميناً نزيهاً شريفاً الأنفة. أما مقوماته الفكرية فتجمع حدة الذهن، وحضور الحس، وجودة الحدس، وقوة النفس وحلاوة اللسان وجراءة البديهة والتؤدة فيما يحتاج إلى الروية. ولم تهمل مثل هذه المصنفات ما يتطلبه إعداد الكتاب الذين يعملون في

الدواوين الفرعية فألزمتهم معرفة الابتداء والجواب والعقود والفتوح والحساب والمقاسمات والحلال والحرام والتأويل والتنزيل والمتشابه والحدود والقصاص والجراحات والتعازير والفرائض والاختلاف في الأموال والأنكحة وسائر الأحكام والشروط وعطاء الجند وأرزاقهم واعلامهم ولباسهم وأحكام الغنيمة والفيء... الخ الخ. تقرأ مثل هذا في كتاب البطلبيوسي المتوفى في ٥٢١ هـ/١١٢٧ م (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب). وكتاب ابن ممتى (المتوفى في ٦٠٦ هـ ١٢٠٩ م). (قوانين الدواوين).

هكذا كانت الثقافة الواجبة لكتاب الديوانيين المحترفين في وظائفهم محدودة الاختصاص على هذا النحو الذي يذكره أصحاب المصنفات التي غُيّت بما تجب على هؤلاء معرفته حتى لا تكون صناعتهم محصورة في رصّ الألفاظ والشقشقة بالكلمات التي تعجز عن مواجهة متطلبات الأمور الجارية والمشكلات الطارئة في وظائفهم.

ويبقى بعد ذلك وقبل ذلك الأدب في مختلف المجالات الطبيعية للتعبير دون احتراف أو احتكار. وهذا طالما تعارفه تراثنا وأُنبت في ذخائرنا على اختلاف فنونها... ولنسق مثالا من تراثنا الفقهي الذي يظنه كثير من المتأدبين أبعد ما يكون عن الجمال الأدبي حتى ضرب المثل بأدب الفقهاء أو شعر الفقهاء على وجه التخصيص لبيان البعد عن الجمال.

### صور من الجمال الأدبي في تراثنا الفقهي :

لقد كتب قاضي القضاة الإمام أبو يوسف رحمه الله (المتوفى بين سنة ١٨٢ وسنة ١٩٠ هـ) كتابه الفقهي في أحكام الخراج للخليفة العباسي الرشيد فكان من خطابه لأمر المؤمنين في مفتتح الكتاب قوله:

«إن الله وله الحمد قلذك أمرا عظيما ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب. قلذك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيّت وأنت تبني لخلق كثير، وقد استرعاكم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم، وليس يليث البنيان - إذا أسس على غير التقوى - أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه. فلا تضيعن ما قلذك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن الله». ثم يقول عن كتابه الذي كتبه بناء على طلب الخليفة «إنني قد اجتهدت لك في ذلك ولم ألك المسلمين نصحا، ابتغاء وجه الله



وثوابه وخوف عقابه. وانى لأرجو إن عملت بما فيه من البيان أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد، ويصلح لك رعييتك، فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم، ورفع الظلم عنهم والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم... فوفقك الله لما يرضيه عنك وأصلح بك وعلى يديك»<sup>(١)</sup>.

والجمال الأدبى عند أبى يوسف لم يأت فى هذا الكتاب مقصورا على تقديمه أو ختامه - كما قد يظن ظان، بل تراه جليا خلال معالجة مباحثه وموضوعاته. يقول مثلا: «قيل لأبى يوسف: لم رأيت أن يقاسم أهل الخراج ما أخرجت الأرض من صنوف الغلات ولم ترددهم إلى ما كان عمر بن الخطاب وضعه على أرضهم ونخلهم وشجرهم وقد كانوا بذلك راضين وله محتملين؟؟ فقال أبو يوسف: ان عمر رأى الأرض فى ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها، ولم يقل حين وضع عليها ما وضع من الخراج أن هذا الخراج لازم لأهل الخراج وحتم عليهم، ولا يجوز لى ولن بعدى من الخلفاء أن ينقص منه ولا يزيد فيه، بل كان فيما قال لحذيفة (بن اليمان) وعثمان (بن حنيفة) حين أتياه بخبر ما كان استعملها عليه من أرض العراق: لعلكما حملتا الأرض ما لا تطيق، دليل على أنها لو أخبراه أنها لا تطيق ذلك الذى حملته من أهلها لنقص مما كان جعله عليهم من الخراج، وأنه لو كان ما فرضه وجعله على الأرض حتما لا يجوز النقص منه ولا الزيادة فيه ما سألها عما سألها عنه من احتمال أهل الأرض أو عجزهم... فلما رأينا ما كان جعل على أرضهم من الخراج يصعب عليهم ورأينا غير محتملة له وتقدم (عمر) فى أن لا يكلفوا فوق طاقتهم، اتبعنا ما أمر به وتقدم فيه....»<sup>(٢)</sup>

وهكذا يعالج أبو يوسف قضايا الفقه بأسلوب أدبى جميل يزين حجته ومنطقه. ثم يمضى أبو يوسف فى كتابه فيقول فى موضع آخر بعد سوق بعض الأحكام الفقهية: «إن العدل وانصاف المظلوم وتجنب الظلم مع ما فى ذلك من الأجر يزيد به الخراج وتكثر به عمارة البلاد، والبركة مع العدل تكون وهى تفقد مع الجور، والخراج المأخوذ مع الجور تنقص به البلاد وتخرب. هذا عمر كان يجبى السواد مع عدله فى أهل الخراج وإنصافه لهم

(١) أبو يوسف : الخراج ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، ط ٤ ، ١٣٩٢ هـ ، ص ٣ ، ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩١ - ٩٢

ورفعه الظلم عنهم مائة ألف الف، والدرهم إذ ذاك وزنه وزن الميثقال. فلو تقربت إلى الله عز وجل يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيته في الشهر أو الشهرين مجلساً واحداً تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم رجوت أن لا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيته، ولعلك لا تجلس إلا مجلساً أو مجلسين حتى يصير ذلك في الأمصار والمدن، فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترئ على الظلم، ويأمل الضعيف المقهور جلوسك ونصرك في أمره فيقوى قلبه ويكثر دعائه».

كذلك يعقب أبو يوسف على بيانه لأحكام الجزية بكلمته البليغة: «وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك صلى الله عليه وسلم والتقدم لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم. فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه)»<sup>(٣)</sup>.

ويستطرد أبو يوسف إلى بيان أحكام الجنايات ثم يعقب بقوله: «ومن ظن به أو توهم عليه سرقة أو غير ذلك فلا ينبغي أن يعزر بالضرب والتوعد والتخويف، فإن من أقر بسرقة أو بحد أو بقتل وقد فعل ذلك به فليس إقراره بشيء ولا يحل قطعه ولا أخذه بما أقرب... وتقدم يا أمير المؤمنين إلى ولاتك لا يأخذون الناس بالتهمة.. ولا ينبغي أن تقبل دعوى رجل على رجل في قتل ولا سرقة ولا يقيم عليه حد إلا ببينة عادلة أو بإقراره من غير تهديد الوالي له أو وعيد على ما ذكرته لك. ولا يحل ولا يسع أن يحبس رجل بتهمة رجل له. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ الناس بالقذف، ولكن ينبغي أن يجمع بين المدعى والمدعى عليه، وإن كانت له بينة على ما ادعى حكم بها وإلا أخذ من المدعى عليه كفيل وخلى عنه، فإن أوضح المدعى عليه بعد ذلك شيئاً وإلا لم يُتعرض له... فقد كان يبلغ من توقى أصحاب رسول الله الحدود في غير مواضعها وما كانوا يرون من الفضل في درئها بالشبهات أن يقولوا لمن أتى به سارقاً أسرقت؟ قل لا (وأورد عن أبي هريرة واقعة تشهد بذلك)»<sup>(٤)</sup>.

(٣) المرجع السابق ص ١٣٤ ص ١٣٥ - ١٣٥

(٤) المرجع السابق ص ١٩٠/١٩١

والإمام الشافعى رحمه الله خير مثال للفقيه الأديب، فكتابه (الرسالة) - الرائد فى الأصول - قوى الحجة مشرق العبارة فذ فى أدب الحوار «ويكاد المؤرخون يجمعون على عدوبة منطقته، وحسن بيانه وذكائه، وقدرته الفائقة على الجدل، وقوته فى التفكير، ومهارته فى الاستنباط، وثقافته ثقافة فى اللغة والأدب واسعة الى جانب ثقافته فى الحديث». كما قرر أحمد أمين بحق فى (ضحى الإسلام). وهو يقول عن كتاب (الأم): «بين أيدينا مجموعة فى سبعة أجزاء أغلبها من كلام الشافعى رواها عنه تلميذه (البويطى) وأدخل فيها بعض تعليقات أفرادها وبينها حتى لا تلبس بكلام الشافعى... وفى (الأم) مصداق لجميع ما ذكرنا عن الشافعى، فهو فيه فصيح العبارة قوى الأداء، تشوب عبارته بلاغة البادية وفصاحتها، وقوة القرشية وإيجازها... وليس يستطيع أن ينكر أحد ما فى عبارة الشافعى من دقة وقوة وبلاغة. وفى الكتاب تظهر قوة الشافعى فى الجدل؛ فأسلوب الكتاب كله تقريبا أسلوب جدلى، حتى ليفترض مجادلا يجادله فيرد عليه ثم يعترض فيجيب...»<sup>(٥)</sup>

ومما أثر عن الشافعى رضى الله عنه من كلمات طيبة بليغة: «ما ناظرت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان، وما ناظرت أحدا إلا ولم أبال أن يبين الله الحق على لسانى أو لسانه». ومن أقواله التى تنبئ عن خبرته بدقائق النفوس ومقتضيات السلوك الأجماعى: «ياربيع، رضاء الناس غاية لا تدرك، فعليك بما يصلحك فالزمه، فإنه لا سبيل إلى رضائهم، والانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانتقباض عنهم مكسبة للعداوة. فكن بين المنقبض والمنبسط، فقال له رجل: «أوصنى»، فقال «إن الله تعالى خلقك حرا، فكن حرا كما خلقك» ومن أقواله «لا تبذل وجهك إلى من يهون عليه ردك». «لا تتكلم فيما لا يعينك، فانك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها»<sup>(٦)</sup>.

والإمام الفقيه الأديب ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) يورد فى ثنايا كتابه عن أصول الفقه (الاحكام فى أصول الأحكام) بابا (فى إثبات حجج العقول)، ويقول فيه وهو الفقيه الظاهرى الذى يأخذ بالنص وحده وبدلالة ظاهره فحسب ما يشهد بقوة

(٥) أحمد أمين (ضحى الإسلام ج ٢ ص ٧ القاهرة) ص ٢٢١، ٢٣١

(٦) أحمد العربى: الإمام الشافعى - الفقيه الأديب، سلسلة المكتبة الصغيرة رقم ٢٧ - جدة ص ٥٦، ٥٧، ٥٨

منطقه وبيانه معا: «بطل أن يعلم صحة الخبر إذ لا فرق بين صورة الحق منه وصورة الباطل، فلا بد من دليل يفرق بينهما، وليس ذلك إلا لحجة العقل المفرقة بين الحق والباطل». ويستطرد ابن حزم إلى مناقشة من يقول بإبطال الجدل والمناظرة مبينا أن الجدل المذموم شرعا هو ما فيه معاندة للحق ومخاصمة بالباطل، أما الجدل المحمود فمأمور به في مثل قوله تعالى: «وجادلهم بالتى هى أحسن». «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن». ومن طريف ما استشهد به المؤلف أن المسلمين مأمورون باتباع ملة ابراهيم عليه السلام «فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا» ومن ملته عليه السلام كما ورد في القرآن (المناظرة) يقول تعالى: «وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه»، «ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه» الآيات. وقد أفاض ابن حزم فى التذليل بالقرآن على سلامة المجادلة بالحق بل وجوبها على القادرين عليها عند الاقتضاء. إلى أن قال رحمه الله: «وقد علمنا الله الحجة على الدهرية والثنوية وجميع الملل، وأمر بالجدال على لسان رسوله: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم». وقد علمنا رسول الله وضع السؤال موضعه وكيفية المحاجة. وقد تحاج المهاجرون والأنصار وسائر الصحابة، وحاج ابن عباس الخوارج بأمر على، وما أنكر أحد الصحابة الجدل فى طلب الحق.....»<sup>(٧)</sup>.

والجمال الأدبى هو طابع اسلوب ابن حزم حتى وهو مستغرق فى مناقشة القضايا الفقهية أو متحمس فى الرد على الاجتهادات المخالفة لما ذهب إليه. وتراه يقرر قاعدته المشهورة فى الجزء السادس من (المحلى) «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ولا فى «سائر أموال المسلمين بهم، فيُقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكتفهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة». ثم يمضى الفقيه الجليل يستدل بالقرآن والسنة وآثار السلف على ما قرره، ويعقب على كل دليل يسوقه بلمسة من قلمه تفجر حكمته المذخورة وتكشف نوره المبين. فهو يروى مثلاً بالسند الصحيح الحديث النبوى المشهور «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» ثم يعقب على ذلك بقوله «من كان على فضلة ورأى أخاه جائعا غريان فلم يغثه، فما رحمه بلاشك». ويروى أيضا الحديث المعروف بسنده الصحيح «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» ثم يقبس منه

(٧) ابن حزم: الأحكام فى أصول الأحكام - مطبعة الخانجي بالقاهرة ج ١ ص ١٢ - ٢٩

هذه القبسة الثانية فيقول: «من تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه».

هذا هو الأدب المنبث في الكتابات المشرقة للفقهاء المبرزين، لا تخطئه حتى وهم يناقشون أدق القضايا الفقهية.

واستمع إلى الإمام المجاهد تقي الدين ابن تيمية (المتوفى ٧٢٨ هـ) يقول في ختام كتابه الموجز العميق الممتع (السياسة الشرعية في إصلاح الراعى والرعية): «فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله: فإن التقرب إليه بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها... وغاية مرید الرياسة أن يكون كفرعون، وجامع المال أن يكون كقارون، وقد بيّن الله تعالى في كتابه حال فرعون وقارون.. وقال تعالى:

( تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَنْهَارِ أَنْجَعُهُمْ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا

فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ) (٨٣)

(القصص ٨٣).

فإن الناس أربعة أقسام:

الأول : يريدون العلو على الناس والفساد في الأرض، وهؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون كفرعون وحزبه، وهؤلاء هم شرار الخلق.

الثاني : الذين يريدون الفساد بلا علو كالسراق والمجرمين من سفلة الناس.

الثالث : يريد العلو بلا فساد كالذين عندهم دين يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس.

أما القسم الرابع : فهم أهل الجنة الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم...

فكم ممن يريد العلو ولا يزيده ذلك إلا سفولا، وكم ممن جعل من الأعلى وهو لا يريد العلو ولا الفساد. وذلك لأن إرادة العلو على الخلق ظلم لأن الناس من جنس واحد، فإرادة الإنسان أن يكون هو الأعلى ونظيره تحته ظلم، ثم انه مع هذا لا بد في العقل والدين من أن يكون بعضهم فوق بعض، كما أن الجسد لا يصلح إلا برأس. قال تعالى:

( وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ  
بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتِكُمْ إِنَّا رَبُّكُمْ سَرِيعُ  
الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ )

«الأنعام / ١٦٥»...

فجاءت الشريعة بصرف السلطان والمال في سبيل الله. فإذا كان المقصود بالسلطان هو التقرب إلى الله وإنفاق ذلك في سبيله، كان ذلك صلاح الدين والدنيا. وإن انفرد السلطان عن الدين والدين عن السلطان فسدت أحوال الناس. وإنما يمتاز أهل طاعة الله عن أهل معصيته بالنية والعمل الصالح... ولما غلب على كثير من ولاية الأمور إرادة المال والشرف صاروا بمعزل عن حقيقة الإيمان وكمال الدين، ثم منهم من غلب الدين وأعرض عما لا يتم الدين إلا به من ذلك، ومنهم من رأى حاجته إلى ذلك فأخذ معرضاً عن الدين لا اعتقاده أنه مناف لذلك، وصار الدين عنده في محل الرحمة والذل لا في محل العلو والعز. وكذلك كما غلب على كثير من أهل الديانة العجز عن تكميل الدين والجزع لما قد يصيبهم في إقامته من البلاء، استضعف طريقتهم واستذلها من رأى أنه لا تقوم مصلحته ومصلحة غيره بها. وهاتان السبيلان الفاسدتان: سبيل من انتسب إلى الدين ولم يكمله بما احتاج إليه من السلطان والجهد والمال، وسبيل من أقبل على السلطان والمال والحرب ولم يقصد بذلك إقامة الدين هما سبيل الضالين النصارى والمغضوب عليهم اليهود. وإنما الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين هي سبيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسبيل خلفائه وأصحابه

ومن سلك سبيلهم وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه....»<sup>(٨)</sup>.

وجزى الله شيخ الإسلام خيرا عن كل من انتفع بعلمه وبيانه، ولا ينقص ذلك من أجور هؤلاء المنتفعين شيئا. وهذا تلميذ شيخ الإسلام الإمام ابن القيم (المتوفى ٧٥١ هـ) ينقل مناظرة في شأن ما يجوز من العمل بالسياسة فيقول «قال ابن عقيل: السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يشرعه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نزل به وحى، فإن أردت بقولك: لا سياسة إلا ما وافق الشرع - أى مالم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت ما نطق به الشرع (أى عينا ونصا) فغلط وتغليط للصحابه... ولو لم يكن إلا تحريف المصاحف (لكفى)، كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة.. قلت: هذا موضع مزية أقدام ومضلة إفهام، وهو مقام ضنك فى معترك صعب. فرط فيه طائفة: فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرأوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدوا على أنفسهم طرقا صحيحة من الطرق التى يعرف بها المحق من المبتطل... والذى أوجب لهم ذلك نوع تقصير فى معرفة حقيقة الشريعة، والتطبيق بين الواقع وبينها. فلما رأى ولاة الأمر ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشئ زائد على ما فهمه هؤلاء من الشرعية، أحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم، فتولد من تفصيل أولئك فى الشريعة وأحدث هؤلاء ما أحدثوه من أوضاع سياستهم شر طويل وفساد عريض، وتفاقم الأمر وتعذر استدراكه. وأفرط فيه طائفة أخرى: فسوغت منه ما يناقض حكم الله ورسوله. وكلتا الطائفتين أتيت من قبل تقصيرها فى معرفة ما بعث الله به ورسوله، فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط - وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلة العدل وأسفر صبحه بأى طريق فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره... لا نقول إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة، بل هى جزء من أجزائها، وباب من أبوابها وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى، وإلا إذا كانت عدلاً فهى من الشرع»<sup>(٩)</sup>.

(٨) ابن تيمية - السياسة الشرعية ط ٤ - القاهرة ١٩٦٩ م - ص ١٦٢ - ١٦٧

(٩) ابن القيم : اعلام الموقعين - مراجعة عبدالرؤوف سعد - القاهرة ج ٤ ص ٢٧٣ وانظر للمؤلف نفسه الطرق

«ومن له ذوق في الشريعة وإطلاع على كمالاتها، وإنها لغاية مصلحة العباد في المعاش، ومجيئها بغاية العدل الذى يفصل بين الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، عرف أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر هي عين الشريعة، علمها من علمها وجهلها من جهلها»<sup>(١٠)</sup> اعلم أن الشريعة عدل كلها، وقسط كلها، ورحمة كلها... فكل مسألة خرجت من العدل إلى الظلم ومن القسط إلى الجور ومن الرحمة إلى ضدها، فليست من الشريعة وإن ادخلت فيها بالتأويل...»<sup>(١١)</sup>.

هذا البيان العذب الرقيق، خرج من مشكاة واحدة مع العلم الغزير النافع والحجج القاطعة، واقتبس من نور الأدب القرآنى، وللقرآن المثل الأعلى... ومثل هذا الأداء الذى يقرن العلم بالأدب، ويؤلف بين النفع والجمال، هو أولى بأن يجلى ويُبَيِّن للناس.

ولقد عرفت الآداب العالمية مفكرين وعلماء صاغوا فكرهم وعلمهم في بيان حلول أخاذ: فكانت كتاباتهم موردا فكريا ونموذجا أدبيا في آن واحد، وكان أثرهم المتطاوّل لأدبهم نتيجة احتوائه أفكارا وعلماء.

### التعبير الأدبى فى تراثنا التاريخى بوجه خاص :

وتراثنا زاخر بالتعبير الأدبى الجميل فى مجال التاريخ وما يتصل به من كتب السير والتراجم والطبقات والأنساب، وفى مجال البلدان وما يتصل بها من كتب الرحلات. ولقد اعتبرت سلاسل عربية حديثة مشهورة فى (الفنون الأدبية): (التراجم والسير) و(الرحلات) من هذه الفنون الأدبية. وكتب فى إحدى هذه السلاسل الأديب المصرى المعروف الأستاذ محمد عبد الغنى حسن كتاب (التراجم والسير) وكتب الدكتور شوقى

---

الحكمية فى السياسة الشرعية - دار الباز بمكة المكرمة ص ١٢ - ١٤

(١٠) الطرق الحكمية ص ٥

(١١) أعلام الموقعين



ضيف أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة كتاب «الرحلات» فى نفس السلسلة<sup>(١٢)</sup>.  
وكتب المستشرق الروسى كراتشكوفسكى كتابه المعروف (الأدب الجغرافى العربى).

### النموذج القرآنى لأدب التاريخ والسير :

والقرآن الكريم - وله المثل الأعلى - قد علّم المسلمين كيف تصاغ الحقائق التاريخية والكونية الواقعة فى بيان رائع معجز، دون أن ينال البيان الأدبى من الحقيقة التاريخية أو الكونية، ودون أن تجفف الحقيقة التاريخية أو الكونية من نداوة التعبير الأدبى. يقول عز من قائل فى وصف مكان المعركة فى موقعة بدر

( إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى  
وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَافْتَحْتُمْ فِي  
الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ  
مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ  
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ )

«الأنفال / ٤٢».

ثم يقول عز من قائل عن عدد جيش المشركين

( وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ  
فِيْ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ  
تَرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ )

(الأنفال / ٤٤)

(١٢) انظر سلسلة (الفنون الأدبية) التى أصدرتها دار المعارف بالقاهرة

وفي الآيتين تحديد دقيق للوقائع مصوغ في بيان معجز يقدم النموذج الذي يستفاد منه ولكن لا يمكن بلوغ أحكامه. ويخلص القرآن دأها إلى الحكمة والعبرة والنتيجة الاعتقادية للأحداث «ليقضى الله أمرا كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور».

ويقول تعالى في وصف تطور الوقائع بالنسبة لجيش المسلمين في غزوة أحد:

(يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمُ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ -

إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ

وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۖ مِّنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا

وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ

وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

\* إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلُونَّ عَلَى أَحَدٍ ۚ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ

فِي الْأَنْحُرِ ۚ فَأَتَبِكُمْ عَمَّا فِطَرْتُمْ كَيْلًا ۚ تَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ

وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أُنْزِلَ

عَلَيْكُمْ مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةٌ نَّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ

وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ

الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قُلْ إِنَّ

الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۚ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ

لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ  
 فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ  
 وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ  
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ  
 الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا  
 وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَأَيُّهَا  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا  
 ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانَوْا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا  
 وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي  
 وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ  
 اللَّهِ أَوْ مِتُمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

«آل عمران / ١٥٢ - ١٥٧».

ومرة أخرى تأتلف في الآيات دقة العرض للوقائع - بما في ذلك الوقائع النفسية في أعماقها  
 وأغوارها - مع روعة البيان. ويخلص هذا التفصيل التاريخي الأدبي المعجز إلى الحقائق  
 الإيمانية التي ينبغي تأكيدها: «قل إن الأمر كله لله» «والله يحيى ويميت، والله بما تعملون  
 بصير»، «ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون».

ويكشف القرآن الصورة النفسية والسلوكية للمنافقين واليهود فيما ذكره عن إجلاء  
يهود بنى النضير بعد معركة أحد

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ  
لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ  
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ  
لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا  
لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ  
لَيُؤْلِنَ إِلَّا أَذْبَرْتُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً  
فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾  
لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ  
جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ  
الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي  
بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ

عَلِقَبْتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ

«الحشر / ١١ - ١٧».

الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

وفي غزوة الأحزاب يصور القرآن تحزب الكفار واليهود والمنافقين ضد المسلمين وأثره الموقوت، ويخلص من ذلك إلى سوق الحقائق الاعتقادية وتشبيتها:

( إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ  
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ  
الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا  
شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم  
مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتِ  
طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا  
وَيَسْتَعِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا  
هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ  
مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا  
بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ  
الْأَدْبَرَ<sup>ج</sup> وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْغُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَّن يَنْفَعَكُمُ

الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَنُونَ

إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

(الأحزاب / ١٠ - ١٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ

مِنْكُمْ وَالْفَاقِلِينَ لَا إِخْوَانَهُمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ

إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْجَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ

يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ

الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حَدَادٍ أَشْجَّةٌ

عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ

ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا

وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوِائِهِمْ يَادُّونَ فِي الْأَعْرَابِ

يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا

قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

(الأحزاب / ١٨ - ٢٠)

ويذكر القرآن صوراً سلبية لبعض أفراد من المسلمين تجاوبوا مع كيد الأعداء

( وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ )

(التوبة / ٤٧)

وإلى جانبها يقدم صورا إيجابية مشرقة مضيئة للمؤمنين الأقوياء الثابتين

( وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ  
وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا  
وَسَلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ  
عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا  
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ  
الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ <sup>ج</sup> إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا  
رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ )

«الأحزاب / ٢٢ - ٢٤».

وقد كانت العاقبة للمتقين، والدائرة على الكفار والمنافقين وحلفائهم اليهود

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا  
وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ <sup>ج</sup> وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾  
وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبِهِمْ  
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ  
فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ  
تَطْعُوهَا <sup>ج</sup> وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ) «الأحزاب / ٢٥ - ٢٧».

ويطول بنا العرض لو أردنا أن نستقصى ما ذكره القرآن عن وقائع غزوات الرسول صلوات الله وسلامه عليه وما اشتملت عليه من بيان دقيق للوقائع المادية والنفسية في أسلوب رائع معجز، يسوق إلى تثبيت الإيمان في النفوس والعقول. وحسبنا أن نشير بالاضافة إلى ما سبق ما ورد عن يوم الحديبية في سورة الفتح، وما ورد عن غزوتي حنين وتبوك في سورة براءة، فضلا عما ذكره القرآن من وقائع في مواضع أخرى متعددة منه.

كما عرض القرآن لسير الأنبياء والمرسلين ، وفصل سيرة خاتمهم محمد عليه أفضل الصلوات والتسليم. ونسوق نموذجا جامعاً معبراً من سيرة يوسف عليه السلام التي قصتها السورة المعروفة باسمه. وفتح السورة والسيرة بهذا الاستهلال البليغ المشوق:

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ  
أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ  
كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ  
لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ  
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٢﴾ قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ  
رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ  
لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٣﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ  
مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ  
يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ \* )

«يوسف / ٣ - ٦»



وتفاصيل سيرة نبي الله الكريم بن الكريم يوسف عليه السلام - كما وصفه النبي محمد صلى الله عليه وسلم في آيات القرآن - غاية في الروعة البيانية والعبرة الاعتقادية الأخلاقية. وكما استهلت السيرة بذلك الاستهلال الرائع، اختتمت بهذا الختام الأخاذ الذي أجمل وقائع السيرة وخلص إلى غايتها التربوية وساق تحقيق الرؤيا التي استهلت به

( يَسْلُطُ اللَّهُ الْعَرْشَ الْعَظِيمَ ) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ۖ  
فَارْتَدَّ بِصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ  
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْتَ وَآبَاءُنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا  
كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ  
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى  
إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾  
وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ  
هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ  
أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ  
الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ  
رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾  
\* رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ

الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ  
مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا  
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ  
بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

«يوسف / ٩٦ - ١٠٣».

وتأتى آخر آيات السورة والسيرة تؤكد الحكمة من سوق وقائع التاريخ الصحيحة

( لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ  
حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ  
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ )

«يوسف (١١١)».

وكذلك يعرض القرآن لظواهر الكون عرضاً يقترن فيه ذكر الحقائق بروعة البيان  
ويخلص إلى تأكيد الإيمان:

( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ  
مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ  
أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ  
وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ

مَنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ )

«فاطر ٢٧/٢٨»

( يَسْمِعُ اللَّهُ الرِّجْمَ الرَّجِيمَ وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ خَلَقُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْمُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
وَأَتْبَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
يَسْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا  
وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾ )

«الروم / ٢٢ - ٢٤»

ويسوق القرآن رحلة ذى القرنين ، فيتتبع مواقعها وما تبينه صاحبها في كل موقع من ظواهر طبيعية وبشرية. وأخبار هذه الرحلة تستهل بتقرير ما أنعم الله على الإنسان بعامة وعلى ذى القرنين بخاصة من طاقات وامكانات ووسائل في نفسه وفيما تحت يده، وتشهد بأنه قد استثمرها بحق ولم يهملها فساقها إلى مزيد من العلم والمعرفة:

( إِنَّا مَكَّالَهُ ۖ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾  
فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ )

«الكهف / ٨٤ - ٨٥»

## بواكير الأدب التاريخي الإسلامي في السيرة النبوية :

وجاءت بواكير الأدب التاريخي الإسلامي في رواية مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ووقائع سيرته بوجه عام. وقد تجلّى في روايتها الأسلوب الأدبي في عرض الوقائع. ولنقتطف فقرات من روايات محمد بن إسحاق (المتوفى نحو ١٥٢ هـ) شيخ المؤلفين في السيرة النبوية كما نقلها ابن هشام (المتوفى ٢١٨ هـ) الذي انتهت إليه سيرة ابن إسحاق فشاع ذكره بها لنستمع إلى ابن إسحاق يقول عن عرض الرسول دعوته على رجالات العرب ومحاولات قریش صدهم عن تلك الدعوة وتنفيرهم من رسول الله وإيذاء من آمن بها من المستضعفين: «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يرى من قومه يبذل لهم النصيحة ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه. وجعلت قریش حين منعه الله منهم، يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب. وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول الله بها، فمشى إليه رجال من قریش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيبا فقالوا له: يا طفيل انك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا وشتت شملنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجته، وأنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد حل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمع منه شيئا. قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين عزمتم إلى المسجد كرسفاً (أى قطناً) فرقا من أن يبلغني شئ من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله قائم يصلى عند الكعبة، فقمتم منه قريباً فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله فسمعت كلاماً حسناً قال: فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله اني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فأعرض على أمرك. قال: فعرض على رسول الله

الإسلام وتلا على القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق...» (١٣)

ويروى ابن اسحق أيضاً: قال: «قدم رجل من إراش بإبل له مكة فابتاعها منه أبو جهل، فمطله بأثمانها فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم في ناحية المسجد جالس، فقال: يامعشر قريش من رجل يؤديني على أبي الحكم بن هشام فإني رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي - فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس - لرسول الله صلى الله عليه وسلم - يهزأون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة، اذهب إليه فإنه يؤدبك عليه. فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله فقال: يا عبدالله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قِيلَ وأنا رجل غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لي حقي منه، فأشاروا إليك، فخذ لي حقي منه يرحمك الله. قال انطلق إليه، وقام معه رسول الله. فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه فانظر ماذا يصنع. قال: وخرج رسول الله حتى جاءه فضرب على بابه فقال من هذا؟ قال: محمد، فأخرج إلى. فخرج إليه وما في وجهه من رائحة، قد انتقع لونه، فقال (له رسول الله) اعط هذا الرجل حقه، قال نعم لا تبرح حتى أعطيه الذي له. فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه. ثم انصرف رسول الله وقال للإراشي: الحق بشأنك فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيراً، فقد والله أخذ لي حقي» (١٤).

إن ابن اسحاق يروى الواقعة بعبارة سليمة جميلة، وقد كان بوسع أن يعرض معالم الحوادث بتتابع، لكنه عمد إلى عرضه في صورة بيانية معبرة رائعة، على أنه لم يسرف في الوقت نفسه في تجميل العبارة حتى تفقد طابعها التاريخي وتضيع أحداثها بين الزينة والزخرف. انظر إليه يورد في ثنايا واقعة الطفيل هذا الايضاح لمكانته «وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً» - وهي أوصاف اختيرت بدقة لا يغني أحدهما عن الآخر، ولها

(١٣) ابن هشام: السيرة النبوية - تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي - ط ٢ القاهرة

١٣٧٥ هـ/١٩٥٥م القسم الأول ص ٣٨٢ - ٣٨٣

(١٤) المرجع السابق ص ٣٨٩ - ٣٩٠

أهميتها في إيضاح شخصية الرجل، ولها دلالتها على أهمية رأى الشاعر اللبيب، وهو من أبرز رجال الثقافة والفكر في المجتمع وقتذاك، وكان من أشرف القوم، وكان من الممكن أن ينحاز ابتداءً إلى كبار قريش في مناوأة محمد صلى الله عليه وسلم ودينه. وقد تأثر الرجل بدعايتهم فعلاً «فأجمع أن لا يسمع منه ولا يكلمه، وحشى في أذنه حين غدا إلى المسجد كرسفاً فرقا من أن يبلغه من قول محمد»!

وإنما حماء وحصنه وأرجعه عن هذه الطفولة عقله وفكره. كذلك نرى ابن اسحق يورد في تضاعيف قول مجلس قريش للإراشي الذى طلب العون على أخذ حقه: «أرأيت ذلك الرجل الجالس - فيوضح ابن اسحاق بإيجاز مأرب القوم بما لا يقطع سياق الوقائع فيعقب على إيمانهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم. «وهم يهزأون به لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة». ولا يفوت ابن اسحق أن ينقل جزئية صغيرة هى إيفاد أهل المجلس لرجل منهم ليتبع الإراشي بعد أن قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مصاحبته إلى أبى جهل ليعزز لديه مطالبته بحقه الذى مطله أبو جهل، وقد أوفدوا الرجل حتى ينظر ما يكون عليه الأمر بين محمد وأبى جهل. وهى جزئية كان ابن اسحق بارعاً في التنبيه لها وإبرازها إذ لها دلالتها على حرص القوم على المضى في سخريتهم، وعلى مشيئة الله أن يشهد شاهد القوم بنفسه نقيض ما توقعوه!

ثم لنستمع إلى ابن اسحق يعبر عن أثر وفاة خديجة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى طالب في إيجاز وروعة: «فتتابعت على رسول الله المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، وبهلك عمه أبى طالب وكان له عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصرًا على قومه، وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين. فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً»<sup>(١٥)</sup>. وقد وصف ابن اسحق معاونة الزوجة المؤمنة بحق والأهمية النفسية لتلك المعاونة، كما وصف معاونة أبى طالب الذى «كان عضداً وحرزاً ومنعة وناصرًا» لرسول الله وإن لم يؤمن بدعوته إذ كانت لتلك المناصرة والتعزيد أهميتها في المجتمع القبلى، واختار من أحداث إيذاء

(١٥) المرجع السابق ص ٤١٦

الرسول بعد فقدته ذلك العضد والحرز والمنعة حدثا معبرا عن تطاول القوم واجترائهم وتوقحهم «حتى اعترض سفيه رسول الله فنثر على رأسه ترابا».

ثم يعرض ابن اسحق مرحلة حاسمة من تاريخ دعوة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسيرته حين شرع يعرض نفسه على القبائل التي تقدم إلى مكة للحج، وكيف انتهى ذلك إلى إسلام بعض أهل يثرب الذي كان فتحا مبينا يقول: «ثم قدم رسول الله مكة (من الطائف حيث حاول دون جدوى دعوة ثقيف) وقومه أشد ما كانوا عليه من خلاف وفراق دينه إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به...» وهكذا يصور ابن اسحق كيف بلغ الاضطهاد ذروته، وهى سنة الله في اشتداد الظلمة قبل انبلاج الفجر. ولقد روى ابن اسحق عن رسول الله كلمات من أروع صور البلاغة النبوية حين أغرت ثقيف به سفهاءها ومواليها يسبونه به حتى التجأ إلى بستان ليبتعد عن مطارديه الذين يتعقبونه بالأذى: «فلما اطمأن رسول الله قال فيما ذكر لى: الله إليك أشكو ضعفى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلمنى، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عاقبتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»<sup>(١٦)</sup>

فى تلك الظروف وعلى تلك الحال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم «وقومه أشد ماكانوا عليه من خلاف وفراق دينه» كما يعبر ابن اسحق لكنه لم يهن لما أصابه فى سبيل الله ولم يضعف ولم يستكن، بل أصر على أن يجذ فى البحث عن عقلاء يعرض عليهم دعوته وهداية ربه فلا تصم الأهواء آذانهم، وتعمى أبصارهم كما كان شأن قريش. يقول ابن اسحق بعد ذكر ما كان من بلوغ قريش الغاية فى شدة خلافها مع رسول الله وفراق دينه «فكان رسول الله يعرض نفسه على المواسم إذا كانت على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به...» ولم يترك له كفار قريش هذا المجال؛ فقد روى ابن اسحق على أثر ذلك أن أبا لهب

(١٦) المرجع السابق ص ٤٢٠

عبدالعزى بن عبدالمطلب على الرغم من قرابته الحميمة للرسول - إذ كان عمه - كان يتعقب رسول الله حين يعرض دعوته على القبائل ويصفها بأنها بدعة وضلالة وينهى القوم عن الاستماع إلى رسول الله<sup>(١٧)</sup> لكن مشيئة الله غلبت كل كيد وصد قال ابن اسحق: «فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز وعده له، خرج رسول الله في الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً». وكان هذا اللقاء نقطة تحول في تاريخ دعوة الإسلام وسيرة رسوله عليه الصلاة والسلام. يروى ابن اسحق بعد ما ساقه من كلامه هو عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: «لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمن موالى يهود؟ قالوا: نعم قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا أهل شرك وأصحاب أوثان... فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله انه للنبي الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك وتعرض عليهم الذى أجبتك إليه من هذا الدين، فلأن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك»<sup>(١٨)</sup>.. ولقد شاء الله أن يعز يشرب وأهلها بالإسلام وبأن تكون مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تلك قبسات من رواية ابن اسحق للسيرة العطرة... وهى رواية مستوعبة للدقائق معبرة عن الواقع، وما يذكره ابن اسحق مباشرة من كلامه متتابعاً، وما يدخله في تضاعيف مروياته إيضاحاً وتعليقاً يؤكد قدرة بيانية تضىء بهذه اللمسات العميقة الجو الأدبى الذى يمتع القارىء ويشده إلى متابعة الأحداث والوقائع.

(١٧) المرجع السابق ص ٤٢٢ - ٤٢٣

(١٨) المرجع السابق ص ٤٢٨ - ٤٢٩



## الخصائص الإسلامية في تراثنا التاريخي

نشأ أدب التاريخ والتراجم أصلا في حجر الإسلام ولتلبية مقاصد دينية من تدوين سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخبار الفتوح الإسلامية، إلى الترجمة لرواية الحديث لمعرفة من يؤخذ عنه ومن يُترك فتمثلت فيه خصائص إسلامية أصيلة. وفي مقدمتها رواية الخبر بسنده، وهي طريقة فذة للتدقيق التاريخي، إلى جانب النظر في المتن، كما أنها طريقة تربي الدارس والقارئ على الأمانة في القول والنقل. وقد كان علماء المسلمين يستجيبون للتوجيه القرآني

( يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن  
تَصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦٦﴾ )

«الحجرات / ٦»

ولم يشهد تاريخ أمة من الأمم مثل هذا التدقيق في الرواية والنقل، ومن المؤسف أن هذا النهج الأمثل لم يستمر في القرون المتأخرة بالنسبة لكثير من المؤرخين، ومما يثير أسفا أشد أن الافادة من هذا النهج في تمحيص الروايات التاريخية الذي التزمته لم يتمرس به المعاصرون من المتخصصين في الدراسات التاريخية بالبلاد الإسلامية، كما أنه قد يكون اهتمام راو معين بموضوع معين تعددت روايته للأثار فيه مما يعين على بيان شيء من معالم شخصيته.

ولما كان الدين محورا للدراسة ومعيارا للتقويم فإن المؤرخين قد حرصوا أحيانا على رواية ما ورد من آثار في فضائل البلدان أو مناقب الأشخاص، وهذا وإن كانت قد تخللته مبالغة في القول وأثار موضوعة مدخولة أحيانا إلا أنه يمثل احتكاما إلى شهادة الدين في كل أمر. روى ابن عبدالحكم في كتابه (فتوح مصر والمغرب) في سياق خطبة جمعة لعمر بن العاص رضي الله عنه حاكم مصر: «حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله سيفتح عليكم مصر فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لكم منهم صهرا وذمة، فغفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم.

واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك. واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجداد الأرض، فقال له ابو بكر: «ولم يا رسول الله؟» قال: (لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة) فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم...»<sup>(١٩)</sup> وقد استثمرت كتابة التاريخ والتراجم والسير تربويا، فاتجهت الى دراسة تاريخ الأحداث للعبرة، ودراسة سير الأفذاذ المبرزين للقدوة.. وقد سمي ابن خلدون (المتوفى ٨٠٨ هـ) كتابه فى التاريخ (العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) وهو يقول فى صدر كتابه: «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا»<sup>(٢٠)</sup>.

وقد وجه القرآن المسلمين الى الاعتبار بأخبار النبيين والأولين

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

«يوسف/ ١١١»

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفْتَدِهٖ قُلْ لَا  
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾)

«الأنعام/ ٩٠»

(١٩) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب - تحقيق عبدالمعزم عامر - القاهرة ١٩٦١ ص ١٩١

(٢٠) ابن خلدون: المجلد الأول من تاريخه وهو المقدمة - دار الكتاب اللبنانى بيروت ط - ٣ - ١٩٦٧ ص ١٢

وتتحقق العبرة بتدبر عاقبة الظالمين المفسدين مثلما تتحقق بتدبر عاقبة أهل الإيمان والحق  
المجاهدين

( قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا  
كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ )

«آل عمران / ١٣٧»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّ يَمْسَسُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ  
( مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ  
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ  
الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ  
الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ )

«آل عمران / ١٤٠ - ١٤١»

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كَذَّابٌ ءَالِ  
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ  
اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ  
اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا  
مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٌ ءَالِ

فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ  
فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا

ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

«الأنفال / ٥٢ - ٥٤»

وتجده في ثنايا روايات المؤرخين اشارات بليغة إلى العبرة والموعظة الحسنة، ولا تخلو منها كتابات المتأخرين مثل ابن تغرى بردى في كتابه (النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة).

ولقد درج الطبرى على أن يفرد جانباً لمناقب الخليفة وقسمات شخصيته بعقب خبر وفاته. وهو يبرز ما عرف من مأخذ أحياناً على الخلفاء الذين أتوا بعد الراشدين لتكون تبصرة للمعتبرين فيجتنبون الخطأ مثلما يتبعون الحسن والصواب. وقد ألف ابن الجوزى في مناقب الصالحين من الحكام والعلماء ليبصر الخلف بسيرة السلف وينهجوا نهجهم. قال في تقديم كتابه (مناقب الإمام أحمد بن حنبل):

«... فمن سبر حال نبينا عليه السلام علم فضله على جميع الأنبياء في العلم والعدل، ومن نظر في علوم أمتنا رأى من علوم علمائهم ما يعجز عنه الأخبار ومن عبادة متعبدتهم ما يقصر عنه الرهبان. ولا نظر إلى صورة الترهين فإن التعبد بموافقة المشروع ومخالفة الهوى أشد وأعظم. فالعلم والعمل بحمد الله في أمتنا فاش كثير، غير أنى بحثت عن نائلى مرتبة الكمال في الأمرين - أغنى العلم والعمل - من التابعين ومن بعدهم فلم أجد من تم له الأمران على الغاية التى لا يخدش وجه كمالها نوع نقص سوى ثلاثة أشخاص: الحسن البصرى وسفيان الثورى وأحمد بن حنبل... ثم رأيت أحمد جمع من العلوم مالم يجمعها وحمل من الصبر مالم يحملها..... فرأيت أن أصرف بعض زمنى الى تهذيب كتاب يشتمل على مناقبه وآدابه، ليعرف المقتدى قدر من اقتدى به»<sup>(٢١)</sup>.

ومن الخصائص الإسلامية لتراثنا التاريخى اعتبار وحدة ارض الإسلام مهما كانت

(٢١) ابن الجوزى : مناقب الإمام أحمد بن حنبل تحقيق د . عبدالله التركى ص ٢٦ ، ٢٧

التخوم والحواجز الطبيعية والسياسية... يظهر هذا بطبيعة الحال فيمن أداروا مصنفاتهم على التاريخ الإسلامى العام، لكنه يظهر أيضا فيمن عالجوا تاريخ قطر أو دولة معينة؛ فإنهم لم يغفلوا أحداث سائر بلاد الإسلام، ولاسيا وقت وحدة أرض الإسلام تحت سلطان الخلافة، وإن كان لا ينقطع ذلك بصورة ما حين تجزأ ملك الأرض بين دول متعاصره. ويظهر هذا مثلا في كتاب ابن تغرى بردى عن تاريخ مصر.

ومما سبق إليه مؤرخو الإسلام تلك العلاقة الوثيقة الحميمة بين الإنسان والأرض أو بين التاريخ والجغرافيا فإن مسرح الأحداث له أثره على مسيرة الحرب وإدارة الدولة. ويتضح هذا الاهتمام بهذا الارتباط والترابط عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين على حد سواء... ونجده عند مؤرخى التاريخ الإسلامى العام أمثال المسعودى وابن خلدون، ويتمثل بجلاء في كتابى المسعودى (مروج الذهب) و (التنبية والإشراف) وفي مقدمة ابن خلدون وتاريخه، كما نجده عند من عُتوا بالتاريخ المحدود بمكان أو زمان مثل المقرئى وابن تغرى بردى. وقد أورد ابن خلدون مثلا في (مقدمته) التى تكون المجلد الأول من تاريخه ما يلى: «اعلم أنه قد تبين فى كتب الحكماء الناظرين فى أحوال العالم أن شكل الأرض كروى فانها محفوفة بعنصر الماء.. فانحسر الماء عن بعض جانبيها لما أراد الله تكوين الحيوانات فيه وعمرانها بالنوع البشرى الذى له الخلافة على سائرها. وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح، وإنما تحت الطبيعى قلب ووسط كرتها الذى هو مركزها، والكل يطلبه بما فيه من الثقل، وماعدا ذلك من جوانبها وأما الماء فهو فوق الأرض»<sup>(٢٢)</sup> وقد لاحظ ابن خلدون أن الربع الشمالى من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبى وحاول تعليل ذلك، كما عرض للمعتدل من الأقاليم والمنحرف، وتناول تأثير المناخ فى أحوال البشر. وعنى المقرئى وابن تغرى بردى بوصف مصر قبل استعراض تاريخها، واستنادا من كتب البلدان والرحلات. وأسهب فى الكلام عن نهر النيل وتسجيل تقلباته من النقص والفيضان على مر السنين.

وقد أفرد المقرئى كتابا مركزا قما لتاريخ المجاعات والشدائد أو الأزمات الاقتصادية بمصر. وتناول أسبابها وعلاجها وقد أساه «إغاثة الأمة بكشف الغمة».

(٢٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٧٤

ويسوقنا ذلك إلى النظرة الفلسفية للتاريخ عند المسلمين، وهي مما تميز به تراثنا؛ فكان سلفنا من الرواد في مجال فلسفة التاريخ. ذلك أن القرآن قد وجه أنظار المسلمين إلى أن له سننا في البشر مثل سنته في الكون المادي

( فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٢﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٣﴾ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَلِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٤﴾ ) «فاطر/ ٤٣ - ٤٥»

( وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمَ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ )

«البقرة/ ٢٥١»

( أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ

( السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ  
أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ  
فَإِذَا الزُّبْدُ بَدَّ فَإِذَا زُبْدٌ وَفَاءٌ وَإِذَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا بَكَتُ فِي  
الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) )

«الرعد / ١٧»

( بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ  
زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ) «الأنبياء / ١٨»

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض سنن الله الاجماعية، ومن ذلك قوله تعالى:

( إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ )

«الرعد / ١١»

( وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم  
بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا  
فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ) «الأعراف / ٩٦»

( وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا  
فَحَقَّقْنَا عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ فَدَمَّرْنَا بَعْضَهَا دَمِيرًا (١٦) ) «الإسراء / ١٦»

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ  
 بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنِكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ  
 إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ  
 الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا  
 وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ )

«القصص / ٥٨ - ٥٩»

( وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً )

«الأنفال / ٢٥»

( إِنْ أَرَادَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثَهَا مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ) «الأعراف / ١٢٨»

( وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ

وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ )

«النحل / ٩٣»

( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ

مُخْتَلِفِينَ ۚ ﴿١٢٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ



كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

«هود / ١١٨ - ١١٩»

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَنْ كَانَ يُرِيدُ

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيْنَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا

لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا

النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾ )

«هود / ١٢٥ - ١٢٦»

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا

لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا

مَذْمُومًا مَذْحُورًا ﴿١٢٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا

سَعْيًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٢٩﴾

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ

عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١٣٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ

عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿١٣١﴾ )

«الأنعام / ١٢٨ - ١٣١»

وقد استلقت نظر المؤرخين تتابع الدول وتطور الواحدة منها من الضعف إلى القوة إلى الضعف، وحاولوا النفاذ إلى السنن التي تحكم ذلك وشاءها الله الذي خلق كل شئ بقدر وقدره تقديرا:

( وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ )

«آل عمران / ١٤٠»

( يَسْأَلُ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ  
مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ  
مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾  
تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ  
مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ  
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ )

«آل عمران / ٢٦ - ٢٧»

وقد ربطت الآيتان الأخيرتان بين سنن الله الكونية المادية والاجتماعية البشرية في تتابع الظواهر والوقائع.

ووجه ابن خلدون قصارى جهده لمحاولة سبر تلك السنن الاجتماعية التي تحكم تعاقب الدول والحضارات. إنه يقول في صدر مقدمته: «أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال..... إذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى.. تؤدي إلينا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال،

وعمرها الأرض حتى نادى بهم الارتحال... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق»<sup>(٢٣)</sup>.

وهو بعد أن يستعرض جهود من سبقه وعدم اهتمامهم بما اهتم هو به يقول: «... فأنشأت في التاريخ كتابا، رفعت به عن أحوال الناشئة حجابا، وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا، وأبدت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا... وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتنع بعلى الكوائن وأسبابها، ويعرفك الدول من أبوابها، حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك»<sup>(٢٤)</sup>.

ويقول ابن خلدون في ثنايا ما كتبه عن (فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه): «فهم (التاريخ) محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت... لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فرجا لم يؤمن فيها العثار ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق»<sup>(٢٥)</sup>، ويمضى ابن خلدون إلى تقديم الأمثلة للمغالط في بعض الروايات التي تناقلها المؤرخون ويفيض في مناقشتها وإثبات سقوطها في مضمونها وموضوعها ومتنها «فاذن يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لكل حادث واقفا على أصول كل خبر»<sup>(٢٦)</sup> ثم يزيد ابن خلدون مقصده بيانا ووضوحا فيقول: «إن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل، فأما ذكر الأحوال العامة للأفاق والأجيال والأعصار فهو

(٢٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢

(٢٤) المرجع السابق ص ٦

(٢٥) المرجع السابق ص ١٢

(٢٦) المرجع السابق ص ٤٥ - ٤٦

أس للمؤرخ تنبى عليه أكثر مقاصده وتبين به أخباره<sup>(٢٧)</sup>. وهو يجمل أسباب تناقل الأخبار الواهية، في التشيع للآراء والمذاهب والغفلة عن اتباع قواعد التعديل والتجريح والذهول عن المقاصد والجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع وتقرب الناس في الأكثر لأصحاب المراتب، ولكنه على هذه الأسباب كلها ويجعل سابقا عليها سببا أهم هو عنده «الجهل بطبائع الأحوال في العمران، فإن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنشائية (أى من «الانشاء» الذى اصطلاح البلاغيون على شموله الأمر والنهى وما إليهما في مقابل «الخبر» أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها، وسبيل صحة الظن في الثقة في الرواة بالعدالة والضبط. وأما الأخبار عن الوقائع فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه، وصار ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه. إن فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة. وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجماع البشرى الذى هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به، وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه... وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه. وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا»<sup>(٢٨)</sup>.

وفي مقدمة ما ذكره ابن خلدون من سنن العمران والاجماع الإنسانى التى ينبغى إعمالها في تمحيص الأخبار التى يؤدى الذهول عنها إلى مغالط الرواة والمؤرخين «تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام. وهوداء دوى شديد الخفاء؛ إذ لا يقع (التبدل) إلا بعد أحقاب متطاولة، ولا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة.

(٢٧) المرجع السابق ص ٥٢

(٢٨) المرجع السابق ص ٥٨ - ٦٣

وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة والدول (سنة الله التي قد خلت في عبادته)». ويبرر ابن خلدون أثر تغير الحكام على تغير عوائد المحكومين في هذا الأمر ولا سيما إذا كان الحاكمون الجدد من أصل وبيئة وعادات وثقافة مخالفة «والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد، أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه... وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلا بد وأن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك... فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضا بعض الشيء... ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباشرة بالجملة. فمادامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان، لاتزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة. والقياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة، فربما يسمع السامع كثيرا من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها فيجريها لأول وهلة على ما عرف وقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما في مهواة الغلط»<sup>(٢٩)</sup>. وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث»<sup>(٣٠)</sup>

على أن التغير الذي أفاض ابن خلدون في التنبيه إليه، لا يعنى عنده افتقاد سنن ثابتة مطردة في الاجماع الانساني، بل هو لا يفتأ يؤكد أن ثمة ثوابت مطردة يسميها «أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجماع الإنساني»، وهكذا يمكن بل ينبغي أن يقاس «الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب»<sup>(٣١)</sup> كما ذكر صاحب المقدمة.

ويمضي ابن خلدون في سبيله، يحاول التوصل الى سنن العمران البشري، البدوى منه والحضري، وسنن قيام الدول وسقوطها، وتطور الصنائع والحياة الاقتصادية، ثم تطور العلوم والتأليف فيها وتعليمها. وهو يقرر أن «الاجماع الإنساني ضروري» وأن «هذا الاجماع إذا حصل للبشر وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض

(٢٩) المرجع السابق ص ٤٦ - ٤٨

(٣٠) المرجع السابق ص ٥٣

(٣١) المرجع السابق ص ١٢

لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم»<sup>(٣٢)</sup> وابن خلدون يرى أن معاناة أهل الحضرة للأحكام مفسدة للبأس فيهم، مذهبة للمنعة منهم ولكنه يستدرك فيقول: «ولا تستنكر ذلك بما وقع للصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشرعية ولم ينقض ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً، لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلا عليهم من الترغيب والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي... ولما تناقص الدين في الناس، أخذوا بالأحكام الوازنة، ثم صار الشرع علماً وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس إلى الحضارة وخلق الانقياد إلى الأحكام فنقصت بذلك سورة البأس فيهم. فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها أجنبي، وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتي... ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه (أحكام المعلمين والمتعلمين): «إنه لا ينبغي أن يضرب أحد من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواط - نقله عن شريح القاضي»<sup>(٣٣)</sup>.

وقد أفاض ابن خلدون القول في (العصبية) وهي عنده تقابل ما نعبر عنه في أيامنا بالثقل الاجتماعي السياسي، وقرر أن الغلبة للعصبية، وأن غايتها هي الملك، ومن طبيعته السعي إلى الانفراد بالسلطة والمجد، كما أن من طبيعته الترف والدعة والسكون، فإذا استحكم ذلك أقبلت الدولة على الهرم، ذلك أن للدول أعماراً كأعمار الأفراد. وقد فصل ابن خلدون الحديث عن أنواع الملك وأطوار الدولة وانتقالها من البداوة إلى الحضارة. وارتأى أن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، وأن الملك السياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار وهو يستخدم سياسة عقلية قوانينها مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها ويسلم الكافة لها وينقادون لأحكامها. أما الخلافة وهي حكم المسلمين بشريعة الله فهي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، وهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به. فجاءت أحكام الشريعة الإلهية «تحمّلهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك

(٣٢) المرجع السابق ص ٦٩، ٧١

(٣٣) المرجع السابق ص ٢٢١ - ٢٢٣

الذى هو طبيعى للاجتماع الإنسانى، فأجرتة على منهاج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشارع»<sup>(٣٤)</sup>.

ولما كان الله قد خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، وأنزل الكتاب الذى يحمل شريعته إلى الناس بالحق، فإن الحق الذى جاء به الشرع لا يتناقض مع سنن الله الكونية والاجتماعية. وهذا ما نبه إليه ابن خلدون أكثر من مرة فى كتابه، يقول مثلاً: «... فاشترطنا فى القائم بأمر المسلمين أن يكون من أولى عصبية قوية غالبية على من معها لنصرها، ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية... وإذا نظرت سر الله فى الخلافة لم تعد هذا، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه فى القيام بأمر عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم، وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه... ثم إن الوجود شاهد بذلك، فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم»<sup>(٣٥)</sup>.

لقد استفاد علماء المسلمين فى مختلف مجالات علومهم من توجيه القرآن المؤمنين إلى النظر فى سنن الوجود، وكان منهم الذين خاضوا فى مجال (طبائع العمران والاجتماع الإنسانى وقواعد السياسة) وفى مقدمتهم ابن خلدون الذى كثيراً ما يضمن مباحثه شواهد من آيات القرآن تؤيد وجهته، أو خواتم تسوق العبرة ويكون فيها فصل الخطاب. وقد استفاد من هذا الاتجاه الرائد بدرجة ما المبريزى وابن تغرى بردى من مؤرخى مصر. وأفرد السنخاوى (المتوفى ٩٠٢ هـ) سفراً للتعريف بالتاريخ ومقاصده وخصائصه ومزاياه ومناهجه هو كتاب (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ).

وأخيراً : فإن من الخصائص الإسلامية البارزة لتراثنا فى التاريخ والتراجم، ذلك الأداء الأدبى الندى لوقائع التاريخ، إذ تأثر المؤرخون المسلمون بالنهج القرآنى فى سوق الوقائع والسير، ولكتاب الله المثل الأعلى الذى تقصر عن بلوغ كماله جهود البشر، وإنما تحاول أن تقتدى وتهتدى وتتابع... وفيما سلف من مقتطفات من أدب التاريخ والتراجم شاهد على ذلك حتى ما نقل عن ابن خلدون فى مقدمته الفذة الرائدة التى عالج فيها

(٣٤) المرجع السابق ص ٣٣٧ - ٣٣٨

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٣٤٧

مباحث دقيقة عميقة وخلص فيها لآراء ونتائج لم تكن معروفة، ولكن لم تتخل عنه قدرته البيانية وأسلوبه الأدبي وهو يغوص في نظراته ونظرياته.

وقد يغنى هنا أن نسوق مثلاً رائعاً للأدب التاريخي الإسلامي ما ساقه المؤرخون المسلمون عن هجمات التتار الكاسحة لبلدان آسيا التي تهاوت دول المسلمين تحت مطارقها، ووقع المسلمون بين فكى التتار والصليبيين... يقول ابن الأثير: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارهاً لذكرها؛ فأنا أقدم إليها رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين فيأليت أُمى لم تلدنى ويأليتنى مت قبل هذا أو كنت نسياً منسياً... ولقد جرى لهؤلاء التتار ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من حدود بلاد الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزون العراق من ناحية همدان... يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم... ولم ينل المسلمون أذى أو شدة منذ جاء النبی صلی الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثلاً دفعوا إليه الآن. وتعدت هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك. هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها ثم وصلوا إلى الرى وبلد الجبل... وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم. والعدو الآخر: الفرنج قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال، ووصلوا مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها، ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها ولا إخراجهم منها. وباقي ديار مصر في خطر. فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»<sup>(٣٦)</sup> ولا يخفى ابن الأثير المسلمين من مسئولية إزاء تلك الداهية الدهيئة، يقول «قاله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى من ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ولا في نصره الدين، بل كل منهم مقبل على هوه ولعبه وظلم رعيته. وهذا أخوف عندي من العدو. وقال الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة). وقد كان ياقوت الحموى (المتوفى ٦٢٦ هـ) صاحب معجمي (الأدباء) و (البلدان) معاصراً لابن الأثير ولهجمات التتار ونجا بشق النفس من غارتهم، وكتب رسالة إلى القاضي القفطى وزير صاحب حلب ٦١٧ هـ نقلها ابن خلكان في (وفيات الأعيان) ومما جاء في تلك الرسالة: «إنا لله وإنا إليه راجعون من

(٣٦) ابن الأثير: الكامل - القاهرة - ج ١٢ (ص ٢٤٥ - ٢٤٦)



حادثة تقصم الظهر وتهدم العمر وتفت في العضد وتشيب الوليد وتنخب لب الجليد، وتسود القلب وتذهل اللب. فحينئذ تقهر المملوك (يعنى ياقوت نفسه) على عقبه ناكصا، ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيها النفس بالأمن آيسا... فتوصل وما كاد حتى استقر بالوصل، بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار<sup>(٣٧)</sup>

وكان في مصنفات التراجم والسير مجال فسيح لتقديم صورة قلمية أدبية للشخصية المترجم لها بالاستناد إلى المصادر التاريخية الموثوقة، وكان على المصنفين أولا أن ينتقوا مما أثار عن الشخصية المترجم لها ما يفى بالقصد ويبرز قسما الصورة، ثم كان عليهم ثانيا أن يعرضوا المادة المنتقاة عرضا طليما مشوقا حافزا للاقتداء بتلك الشخصيات المبرزة وانتهاج نهجها وانزالها منازلها الجديرة بها في قلوبهم وعقولهم. روى ابن سعد في (طبقاته) من سيرة عمر بن الخطاب أن الربيع بن زياد الحارثي وفد إلى الخليفة فشكا عمر طعاما غليظا أكله فقال له الربيع: يا أمير المؤمنين إن أحق الناس بطعام ومركب لين وملبس لين لأنت. فرفع عمر جريدة كانت معه فضرب بها رأس الربيع وقال: أما والله ما أراك أردت بها الله وما أردت بها إلا مقاربتى، ويحك هل تدري ما مثلى ومثل هؤلاء قال: وما مثلك ومثلكم؟ قال مثل قوم سافروا فدفَعُوا نفقاتهم إلى رجل منهم فقالوا له: انفق علينا، فهل يحل له أن يستأثر منها بشئ؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. قال: فكذلك مثلى ومثلكم. ثم قال عمر: إنى لم استعمل عليكم عمالي ليضربوا بأشاركم وليشتمو أعراضكم ويأخذوا أموالكم ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على أن يرفعها إلى حتى أقصه منه. فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين رأيت إن أدب أمير رجلا من رعيته أتقصه منه؟ فقال عمر: ومالى لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه؟ وكتب عمر إلى أمراء الأجداد «لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تحرموهم فتكفروهم ولا تجبروهم فتفتنوهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم»<sup>(٣٨)</sup>.

وهذا ابن الجوزى يختار لابن حنبل في كتابه عن مناقبه رواية جامعة لعقيدته

(٣٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان - ترجمة (ياقوت الحموى)

(٣٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت ص ٢٨٠

السلفية في أمهات مسائلها تشغل أقل من صفحة بما فيها سند الرواية: «... قال لى أحمد بن حنبل إمام أهل السنة والصابر لله عز وجل تحت المحنة: أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولها الرضاء بقضاء الله والتسليم لأمره والصبير تحت حكمه، والأخذ بما أمر الله به والنهي عما نهى عنه، وإخلاص العمل لله، والإيمان بالقدر خيره وشره، وترك المراء والجدل والخصومات في الدين، والمسح على الخفين، والجهاد مع كل خليفة بر وفاجر، والصلاة على من مات من أهل القبلة، والإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والقرآن كلام الله منزل على قلب نبيه صلى الله عليه وسلم غير مخلوق من حيث ما تلى، والصبير تحت لواء السلطان على ما كان منه من عدل أو جور، ولا يخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا، ولا يكفروا أحدا من أهل التوحيد وإن عملوا بالكبائر، والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله، وأفضل الناس بعد رسول الله أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ابن عم رسول الله، والترحم على جميع أزواج رسول الله وأولاده وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين. فهذه السنة الزموها تسليما، أخذها بركة وتركها ضلالة»<sup>(٣٩)</sup> وهي رواية تشهد لصاحبها بالعلم والأدب معا، إذ أجمل الكثير في كلام قليل مبين، كما أنها تشهد لمن اختار هذه الرواية المستوعبة المحكمة بإصابة المحرّ.

ويمضى ابن الجوزى رحمه الله في اختيار مروياته ويوزعها على أبواب كتابه التي بلغت المائة. وكان منها في شأن إخلاص أهل العلم وتورعهم عن التظاهر بعلمهم قول ابن حنبل الموجز الحكيم «إظهار المحبرة من الرياء» «وفي الجواب لمن سأله الحب في الله: «أن لا يحبه لطمع في ديناه» وفي جواب من سأله عن الفتوة: «ترك ما تهوى لما تحشى»، وفي وصيته لابنه عبدالله «يابنى انو الخير، فانك لاتزال بخير ما نويت الخير». وكان من حكم ابن حنبل المختارة البليغة أيضا: «يؤكل الطعام بثلاث: مع الاخوان بالسرور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة». إذا مات أصدقاء الرجل ذل». وأخبر أبو بكر المروذى قلت لأبى عبدالله: الرجل يُقال في وجهه أحبييت السنة، قال «هذا فساد لقلب الرجل». وروى عن أحمد رحمه الله أنه كان يأتي العرس والإملاك والختان ويحبيب

(٣٩) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص ٢٢٨

ويأكل. ودُعى هو ويحيى بن معين وجماعة فقدم الداعى لوزينجا أنفق عليه ثمانين درهما، فقال أبو خثيمة هذا الإسراف فقال أحمد: «لا، لو أن الدنيا جمعت حتى تكون في مقدار لقمة ثم أخذها امرؤ مسلم فوضعها في فم أخيه المسلم لما كان إسرافا»، فقال له يحيى صدقت يا أبا عبدالله. وكل هذه المختارات شاهد على أدب الإمام المحدث الفقيه الصابر أحمد بن حنبل، كما هي شهادة لابن الجوزى الفقيه المؤرخ الأديب.

وكتب ابن الجوزى عن اختياره مذهب أحمد بن حنبل، فقال: «اعلم وفقك الله أنه إنما يبين الصواب في الأمور المشتبهة لمن أعرض عن الهوى، وقصد الحق لطريقه ولم ينظر في أسماء الرجال ولا في صيتهم، فذلك الذى ينجلي له غامض المشتبه، فأما من مال به الهوى ففسير تقويمه. واعلم أنا نظرنا في أدلة الشرع وسبرنا أحوال الاعلام المجتهدين....». ثم مضى ابن الجوزى يبين نصيب ابن حنبل من العلم بالقرآن والسنة والعلل واللغة والقياس، وعقب على ذلك بقوله: «ثم إنه ضم إلى العلوم ما عجز عنه القوم من الزهد في الدنيا وقوة الورع... وقد سبق في كتابنا هذا من زهده في المباحات ما يكفى ويشفى، ثم انه ضم إلى ذلك الصبر على الامتحان وبذل المهجة في نصرة الحق...». ثم يقول: «فأما المجتهد من أصحابه فانه يتبع دليله من غير تقليد له، ولهذا يميل إلى إحدى الروايتين عنه دون الأخرى وربما اختار ما ليس في المذهب أصلا لأنه تابع للدليل، وانما ينسب هذا إلى مذهب أحمد لميله إلى عموم أقواله»<sup>(٤٠)</sup>

واكرم بهذه الأخيرة منقبة للإمام الجليل وشاهدا على توفيقه في تربية من تابعوه على اتباع السنة والدليل لا مشايعة الرجال أو الائثار بأمر أحد غير الله ورُسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ونختار من أدب السيرة الذاتية نموذجا معبرا يصور واقعة معينة برواية صاحبها وهي أقرب إلى أن تدرج في أدب المذكرات أو الاعترافات.. وقد وردت بلسان الصحابي الأنصارى كعب بن مالك رضى الله عنه، وكان أحد الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك ونزل فيهم قول الله تعالى يعلن قبول توبتهم من فوق سبع سموات على الملأ

(٤٠) المرجع السابق ص ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٦٢.

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ  
وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ  
يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ  
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى  
إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ  
أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ  
لِيتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ )

«التوبة / ١١٧ - ١١٨».

يقول كعب بن مالك في رواية صحيح البخارى: «لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أنى كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حتى تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر اذكر في الناس منها. كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتها في تلك الغزوة. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا مدئ بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجعل للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم وأخبرهم بوجهه الذى يريد. والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لا يجمعهم كتاب حافظ فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى الله. وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم حين طابت الشار والظلال، وتجهز والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أجهز معهم فارجع ولم أقض شيئا فأقول فى نفسى أنا قادر عليه، فلم يزل يتأدى بى حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا، فقلت أجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأجهز فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا. فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتنى فعلت، فلم يقدر لى ذلك. فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفقت فيهم أحزنى أننى لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره فى عطفه، فقال معاذ بن جبل: بشى ماقلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى، فطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى، فلما قيل إن رسول الله قد أظل قادما مازاح عنى الباطل وعرفت أنى لن أخرج منه أبدا بشى فيه كذب، فأجمعت صدقه. وأصبح رسول الله قادما، وكان إذا جاء من سفر بدأ بالمسجد فيركع ركعتين ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله. فجنته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال: تعال. فجئت أمشى حتى جلست بين يديه، فقال لى: ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إنى والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، والله لقد أعطيت جدلا، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب لترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه انى لأرجو فيه عفو الله. لا والله، ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه. فقال رسول الله: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك. . فقامت. وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى: والله ما علمناك أذنت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر إليه المخلفون؟ قد كان كافيك

استغفار رسول الله، فوالله مازالوا يؤنبوني حتى أردت أرجع فأكذب نفسي. ثم قلت لهم: هل لقي هذا معى أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالوا مثل ما قلت فقليل لهما مثل ما قيل لك. فقلت من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمرى، وهلال بن أمية الواقفى، فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدرا لى فيها أسوة، فمضيت حين ذكروهما لى. ونهى رسول الله المسلمين عن كلامنا، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحبى فاستكانا وقعدا فى بيوتها يبيكان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد، وأتى رسول الله فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برء السلام على أم لا؟ ثم أصلى قريبا فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى، وإذا التفت نحوه أعرض عنى. حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى، فسلمت عليه، فوالله مارد على السلام. فقلت: يا أبأ قتادة أشدك الله هل تعلمنى أحب الله رسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، فتوليت حتى تسورت الجدار. فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا بنبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدارهوان ولا مضیعة، فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرت بها. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله يأتينى فقال: إن رسول الله يأمرک أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقر بها؛ وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك، فقلت لامراتى: الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر.... حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال الذى ذكر الله: قد ضاقت على نفسى وضافت على الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدا وقد عرفت أنه قد جاء فرج. وأذن رسول الله توبة الله علينا حين صلاة الفجر فذهب الناس

ببشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعته له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرها يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما. وانطلقت إلى رسول الله فيتلقاني الناس فوجا فوجا يهثئونى بالتوبة يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله جالس حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى. والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة. فلما سلمت على رسول الله وهو يبرق وجهه من السرور قال: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك؟ قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله. وكان رسول الله إذا سُرُ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة... قال رسول الله: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قلت فإنى أمسك بسهمى الذى بخير. فقلت: يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله أحسن مما أبلانى، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله إلى يومى هذا كذبا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت....»

فما أبلغ وأصدق هذا الأدب العالى النبيل!

\*\*\*\*\*

لقد كان التراث التاريخى للمسلمين ثريا متنوعا تجمع فنونه وألوانه عمق المعرفة إلى جمال التعبير، كما تبرز فيه كله الخصائص الإسلامية الجامعة مما يجعل تنوع هذا التراث التاريخى تنوعا فى إطار من الوحدة الجامعة، وقد تبرز فى مصنفات تواريخ الأقطار والدول والمدن وسير الشخصيات قسمات الطابع الفردى المميز، لكنه لا ينفصل أو ينغزل عن (الكل)؛ فمصنفات مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادى، أو تاريخ دمشق لابن عساكر، أو ولاية مصر وقضاتها للكندى، أو رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى، والمصنفات التى تسجل سيرة صلاح الدين الأيوبى أو محمود الغزنوى، حافلة

بسمات الطابع المشترك لكتابات المسلمين، من الاستناد إلى الكتاب والسنة، وتأكيد (للوحدة) الإسلامية في مختلف جوانبها وأماراتها، ووحدة الدين ووحدة دار الإسلام ووحدة الارتباط بخلافة الإسلام الراشدة ودولته الموحدة وعهود حضارته الزاهرة. وذلك فضلا عن الطابع المشترك في نهج التأليف وأسلوب العرض، ولا عجب في هذا التنوع والتفرد في إطار الوحدة الجامعة؛ فهذه هي الخصيصة الفذة للإسلام وحضارته؛ فالإسلام لا يهدر التميز الفردي في داخل جماعة الإسلام، ويجيز التنافس في الخير والبر والفضائل، وإنما يهدر الاستعلاء والتكبر والصلف

( ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ  
ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ  
بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ )  
«فاطر / ٣٢»

وقد استوعبت حضارة الإسلام أعراقا وشعوبا وبيئات وأطلقت طاقاتها المبدعة لتسهم في دولة الإسلام وحضارتها، وتتعاون على البر والتقوى، وتتنافس في الخير والمعروف.

وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾

«المطففين / ٢٦» .



## LITERATURE IN THE LEGACY OF ISLAM IN THE FIELD OF SCIENCES IN GENERAL AND HISTORY IN PARTICULAR

By Dr. M. F. OSMAN.

Literature as conceived in this article is the functional one, that is to say, literature which combines together both the beauty of expression and utility in all fields of life.

The beauty of expression is meaningless if it does not promote utility, while the mere concentration on promoting utility does not produce the desired effect if it is void of beauty.

The Legacy of Islam in the field of Literature is both rich and varied. Works written by Moslem Scholars are so abundant that you could meet with them everywhere in the libraries of the Moslem World.

This kind of Literature was written by men who did not take up the art of writing as their job, nor did they adopt it as their means of living. They wrote it simply to express their ideas and record their experiences in the various fields of life. So in their writings dealing with Sharia, for example, or with Fiqh, as well as those dealing with history, geography and travels you may find specimens of high quality literature.

No wonder, then that this kind of literature has remained hidden inside books and never been dealt with by those who write the history of literature.

A good number of examples are explicitly exposed in the article to illustrate the literary beauty of the works of Moslem Scholars.

To conclude, it is stated that this kind of literature, though varied in nature and style, combines in itself scholarly ideas with beauty of expression within the frame-work of Islamic Unity.